المحاضرة رقم (11): تحولات المنهج الإثنوغرافي في البيئة الرقمية

الأهداف التدريسية:

- **معرفة الطالب لمزايا وخصائص المنهج الإثنوغرافي في البيئة الرقمية**
- **تقديم أمثلة تطبيقية لآليات توظيف المنهج الإثنوغرافي عبر النت في الدراسات الإعلامية.**

تمهيد:

أدت التحولات الرقمية التي شهدت الإنسانية وانخراط التكنولوجية الاتصالية في مختلف الممارسات الحياتية إلى ضرورة إعادة النظر في مختلف الأدوات والمناهج البحثية، بالنظر إلى خصائص وسمات البيئة الجديدة، انعكس هذا التحول الرقمي على المنهج الإثنوغرافي، وبات من الضروري تكيف المنهج مع البيئة الافتراضية، لذا نستعرض في هذه المحاضرة تحولات المنهج الإثنوغرافي في البيئة الرقمية وتحديد الأدوات التكنولوجية الجديدة التي يمكن توظيفها من منظور الدراسات الإثنوغرافية.

مفاهيم حول الإثنوغرافية الافتراضية:

يطلق على المقاربة الإثنوغرافية لدراسة مستخدمي الوسائط الجديدة عدة مصطلحات منها Cyberspace Ethnography و Digital Ethnography و Webnography و Netnography و Internet Ethnography، ويرجع سبب تعدد التسميات إلى الاختلاف في المجالات البحثية لكل منها بالنظر لتداخلها لدرجة يصب تمييز حدودها الفاصلة[1].

ويرى الباحثان علي قسايسية وعبد اللطيف بوزير: أن الدراسات الإثنوغرافية في الفضاء الافتراضي تمكن من جمع المعطيات حول السلوكيات والمعتقدات والتمثلات الثقافية الدوافع والتأويلات الخاصة بالأفراد انطلاقا من واقعم

[1] الطاهر بصيص عبد الرحمان قدي، الإثنوغرافيا الافتراضية واستخداماتها في دراسات الوسائط الجديدة، مجلة الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، المجلد 07، العدد 04، 2022، ص 84.

الفيزيائي بتفاعلاتهم وعلاقاتهم بالأجهزة التقنية والاتصالية التي يستخدمونها أو انطلاقا من الواقع الافتراضي الناتج عن دخول الأفراد والجماعات في علاقات اتصالية افتراضية شبكية عن طريق استخدام وسائط الإعلام والاتصال الجديدة،

بعد البحث الذي أجرته كرستين هاين Christine Hine الموسوم بـ Virtual Ethnography and Internet Events: the louise Woodward Case طورت عشرة مبادئ للاثنوغرافيا الافتراضية، نستعرضها على النحو التالي[2]:

- يمكن استخدام الإثنوغرافيا للتحقق من الطرق التي يصبح بها استخدام الانترنت ذا مغزى اجتماعي وهذا ما يعني فعليا وجود أهداف اجتماعية متعددة لاستخدام الانترنت تستحق الاهتمام العلمي من خلال إجراء البحوث والدراسات الاثنوغرافية
- يمكن فهم الوسائط التفاعلية مثل الانترنت على أنها ثقافة وأثار بشرية ثقافية أيضا، والمقصود من ذلك أن شبكة الانترنت أصبحت حاوية لمختلف الثقافات التي ترتبط بالمجتمعات الإنسانية، ويتم تقديم هذه الثقافات في كثير من الأحيان على شكل مواد ومنتجات ذات قيمة ثقافية ومعلوماتية ومادية تجعلها في موضع العرض والطلب.
- الإثنوغرافيا التي تدرس التفاعل عبر الوسائط غالبا ما تتطلب من الباحثين أن يكونوا متنقلين افتراضيا وفزيائيا وهذا له ارتباط وثيق بطرق إجراء الدراسات الاثنوغرافية فالتنقل الافتراضي يتم الاحتياج له في الدراسات التي تستهدف فهم طرق التواصل وأشكال التفاعل ضمن المجتمعات الافتراضية، أما التنقل الفيزيائي فيتم الاحتياج له في الدراسات التي تستهدف فهم كيفية استخدام وسائط الاتصال الجديدة والتفاعل معها ضمن المجتمعات الواقعية.
- بدلا من الذهاب إلى مواقع ميدانية معينة، يتم الاعتماد على الاتصالات الميدانية في الاثنوغرافية الافتراضية، مما يعني أن الباحث ليس مضطرا للذهاب إلى أماكن معينة عند إجراء دراسة إثنوغرافية افتراضية حيث يمكنه الاكتفاء بإجراءات اتصالات الكترونية مع الأشخاص المرتبطين بالبحث لجمع البيانات وإجراء المقابلات...إلخ.
- الحدود الخاصة بين ما هو واقعي وما هو افتراضي لا يجب أن تكون محسوبة، مما يشير إلى أن التداخل الدائم بين المجال الطبيعي والافتراضي، ولا يمكن الفصل بينهما عند إجراء الدراسات الإثنوغرافية.

---

[2] الطاهر بصيص وعبد الرحمان قدي، مرجع سبق ذكره، ص ص 88، 89.

- الإثنوغرافية الافتراضية هي عملية المشاركة المتقطعة، وليس الانغماس على المدى الطويل ويدل هذا على أن الاندماج في العالم الافتراضي بالنسبة لأي مستخدم يكون من خلال فترات زمنية محدودة من اليوم، وهو ما يجب أن يسايره المبحوث في إثناء إجرائه لبحث اثنوجرافي افتراضي.
- الإثنوغرافية الافتراضية تعتبر جزئية بالضرورة يمكن أن تستند حساباتنا فيها إلى الاهتمام الاستراتيجي بمسائل بحثية معينة بدلا من إعادة تقديم موثوقة للحقائق الموضوعية، معنى ذلك أ نتائج البحث الإثنوغرافي الافتراضي ترتبط فقط بالعينة التي تمت دراستها ولا يمكن تعميمها، مع إمكانية الانطلاق في البحث من إطار نظري يبنيه الباحث من خلال مكتسباته العلمية ومعرفته حول الموضوع للتحليل والوصول إلى النتائج.
- إن الاندماج المكثف مع التفاعل الوسيط يضيف بعدا انعكاسيا مهما للاثنوجرافية فهذه الأخيرة تزداد أهمية استخدامها في البحوث المرتبطة بالمجتمعات الافتراضية، كلما زاد اندماج المستخدمين فيها وزاد حجم التفاعل بينهم باستخدام وسائط الاتصال.
- هذه هي الإثنوغرافية من خلال المجال الافتراضي نتعرف على الانترنت عن طريق عمر أنفسنا فيه وإجرائنا للاثنوجرافي باستخدامها وكذلك التحدث مع الناس عنها، ومشاهدة استخدامها ورؤيتها بوضوح في الأوضاع الاجتماعية المختلفة دلالة هذه الاستنتاجات هي ان الإثنوغرافية أصبحت ضرورة منهجية لاستكشاف الانترنت أكثر وفهم ما يحتويه من مجتمعات وتفاعلات.
- الإثنوغرافية الافتراضية هي تكيفية تحدد ما يتناسب منها مع الظروف التي تجد نفسها فيها وهذا إشارة إلى الإثنوغرافية الافتراضية تتعامل مع أنواع مختلفة من الوسائط الاتصالية، المجتمعات والتفاعلات... إلخ مما يستوجب ضبط منهجي للاثنوجرافية حسب كل موض ومميزاته المختلفة.

البدايات الأولى:

كانت الدراسات التجريبية الأولى التي طبقت العمل الميداني الإثنوغرافي على الأنترنت من إجراء عمليات من خلفيات مختلفة في الغالب من علوم الاتصال والدراسات الإعلامية واستندت إلى إطلاق الاستعارات التي أدت إل تصور الأنترنت كنوع جديد من الفضاء الاجتماعي، تم تصور هذا الفضاء السيبراني على أنه مكان غير مادي حيث يمكن للذات غير المجسدة أن تتفاعل بحرية في تشكيل مجتمعات افتراضية حيث الأنماط الاجتماعية والثقافية الجديدة[3].وكان الدور الممنوح للتكنولوجيا لتحويل الثقافة والمجتمع في غاية الأهمية حيث اعتبرت الدراسات الاجتماعية الأولى للأنترنت أن خصائص الوسيلة مثل الافتراضية والمكانية والتفكك والانفصال هي ما يشكل أنماطا جديدة للنشاط الاجتماعي.

لقد استدعت خصوصية الفضاء الاتصالي الجديد الذي يشكل امتداد للفضاء الناجم عن الاستعمال المكثف للتكنولوجيات المنزلية، تعميم الاختيارات المنهجية الإثنوغرافية للتوجه الجديد في أبحاث الجمهور، وهي تندرج عموما فيما يعرف بالمنهجية الإثنوغرافية في دراسات التلقي، والتي تستلزم تحديدا إثنوغرافيا الجمهور وإجراء تحريات علمية حول أنظمة التأويل والعمليات التي يقوم بها المتلقون [4].

خطوات تطبيق الإثنوغرافية الافتراضية:

تعتمد المقاربة الإثنوغرافية على أداتي الملاحظة بالمشاركة وكذا المقابلة بهدف الكشف عن المشكلة البحثية المعالجة، ولا تختلف هاتين الأداتين في مفهومها بين الفضاء الواقعي والافتراضي، والشيء الذي يتغير هو طريقة تطبيقها على العينة مجال الدراسة، ففي الفضاء الافتراضي يعتمد الباحث على أداة الملاحظة بالمشاركة أو المعايشة بمعنى يصبح الباحث فردا من أفراد المجتمع المدروس يتكلم لغتهم ويستخدم نفس المفاهيم والتصورات والاعتقادات الموجودة لديهم من أجل كسب ثقتهم.

الملاحظة بالمشاركة: تقنية أساسية في البحوث الأثنوغرافية، حيث يلزم الباحث الإثنوغرافي من أجل إجراء دراسته الميدانية القائمة على هذه الأداة من أجل إيجاد دور له داخل المجتمع الذي يقوم بدراسته كإجراء أساسي وأولي من أجل

[3] زينب خلالفة، الإثنوغرافيا على الأنترنت السبيل لفهم المجتمعات الافتراضية، مجلة الحوار الثقافي، المجلد 11، العدد 2، 2022، ص 95.

[4] الزهرة بوجفجوف، المقاربة الإثنوغرافية في المجتمعات الافتراضية: توجه بحثي معاصر في الفضاء الاتصالي الجديد، المجلد 9، العدد 2، 2022، ص 282.

أن يحصل على المعلومات التي يحتاجها، وذلك لأن تواجده في مجتمع قبيلة أو عشيرة يكون غريبا فيما يجعل الأفراد موضوع الملاحظة يغيرون سلوكياتهم العادية وكذلك الإدلاء بأقوال لا تعبر عن الواقع وذلك لشعورهم بأنهم خاضعون لملاحظة الغير، ولذلك لابد للباحث أن يقوم بدور ما في المجتمع بحيث يترتب عليه أن يقبله أفراد المجتمع وكأنه واحد منهم[5].

يحدد **ريتشارد ايفانز** شروط نجاح الملاحظة بالمشاركة فيما يلي[6]:

- على الباحث أن يقضى فترة كافية في مشاركة أفراد المجتمع موضوع الدراسة في معيشتهم كما يرى بعض العلماء أن تحديد الفترة الكافية يرتبط بعوامل متعددة مثل حجم المجتمع وطبيعة المشكلة المراد دراستها دراسة مركزة.
- أن يكون الباحث طوال فترة الملاحظة على صلة وثيقة بالأهالي ويتم ذلك عن طريق إشراكه في معظم جوانب حياتهم بالتركيز على الجانب المدروس.
- على الباحث الإثنوغرافي أن يستخدم في حديثه مع أفراد المجتمع لغتهم الوطنية بغية نقل الأفكار والمعاني بدقة.
- ملاحظة مختلف جوانب الحياة الاجتماعية وتحديد الجانب الذي سيدرسه بالتفصيل مع تحديد وظائفه.
- يكون الباحث عضوا داخل المجتمع الافتراضي ويكون حاضر عند حدوث الظاهرة أو يكون عضة للفعل أو جزء من التفاعل الإلكتروني.

إجراء الملاحظة: على الباحث أن يعتمد في عمله على مجموعة من الإجراءات والنقاط المهمة في إجرائه للملاحظة الميدانية وهذه الإجراءات تتمثل فيما يلي[7]:

- تحديد هدف الملاحظة، ومجالها، ومكانها، وزمانها.
- إعادة بطاقة الملاحظة ليسجل عليها المعلومات التي يتم جمعها عن طريق الملاحظة.
- التأكد من صدق الملاحظة عن طريق إعادتها لأكثر من مرة.
- تسجيل ما يتم ملاحظته مباشرة.

---

[5] الزهرة بوجفجوف، مرجع سبق ذكره، ص 283.

[6] المرجع نفسه.

[7] عباس رضوان وبن معمر بوخضرة، الملاحظة بالمشاركة ودورها في تفعيل البحث الميداني، مجلة الفكر المتوسطي، المجلد 11 العدد 1، 2022، ص 32.

المقابلة:

تعتبر المقابلة من الأدوات البحثية التي يستخدمها الباحث لجميع البيانات في مشروعه البحثي، وهي أكثر من مجرد محادثة كونها تنطوي على مجموعة من الافتراضات والتفاهمات[8]، وتمكن المقابلات من التعرف واكتشاف المزيد من الظواهر المعقدة التي قد تكون مخفية أو غير مرئية ومع ذلك فإن المقابلات تتمحور حول بناء المعنى بشكل تبادلي وإنشاء قصة بشكل متبادل، من خلال المقابلة يتم إنشاء المعنى بين المشاركين بدلا من الاحتفاظ بها في أذهان الشخص الذي يجري المقابلة أو الشخص الذي تجرى معه المقابلة.

تسهم المقابلة في معرفة كيف يدرك الناس أو يتماثلون مشكلة أو مشروعا أو سوكا لفهم مسببات السلوكيات الإعلامية الملاحظة، وكذا أهم القيم التي يكتشفونها من خلال علاقتهم بالتلفزيون، كما تجدر الإشارة هنا إلى أن المقابلة تجرى على أساس وضعية وجه لوجه، في فضاء الإعلام الجديد، تتمثل أدوات الدراسة الإثنوغرافية الافتراضية في المقابلات الإلكترونية مع المستخدمين المشاركين أو الملاحظة بالمشاركة أو غير المشاركة كما تجري مقابلات جماعية متعمقة باستخدام بالرسائل المباشرة الفورية للردّ على تساؤلات الإثنوغرافيين المشاركين أو يتم تحليل البريد الإلكترونية والصور والرسوم ولغة الجسد ونبرة الصوت وتعبيرات الوجه، أو تحليل طرق استخدام المشاركين لكاميرات الويب أو الفيديو. وتختلف المقابلات الإثنوغرافية عن المقابلات التفاعلية من عدة نواحي أولا في المقابلة الإثنوغرافية يعرف من يجري القابلة ومن تجري معه بعضها البعض من قبل إجرائها، وسبق أن تكلم كل منهما مع الآخر، ولا تحدد المقابلات الإثنوغرافية جدولا زمانيا أو برنامجا لها عادة، ولكنها تعقد دون تحضير لها أثناء جريان الملاحظة بالمشاركة، وثالثا: تكون المقابلات الإثنوغرافية أقصر زمنيا من المقابلات التفاعلية، كما أنها تركز أكثر من غيرها على موضوعات محددة[9].

أسئلة للمناقشة:

- **ما هي التحديات التي تواجه الباحث في دراسته الإثنوغرفية في البيئة الرقمية؟**
- **كيف يمكن تحديد عينة الدراسة في بحوث النتوغرافيا؟**

[8] بوترعة بلال، التحليل الموضوعي للمقابلات البحثية في العلوم الاجتماعية، مجلة البحوث والدراسات الإنسانية، العدد 16، 2018، ص 218. 219.

[9] عباس رضوان وبن معمر بوخضرة، مرجع سبق ذكره، ص 32.